حديث
الثلاثة الذين في الغار

***

تأليف الدكتور

سيف الإسلام حسين عبد الباري

***

مراجعة وتصحيح وتعليق

الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد

***

إشراف

الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي

اسم الكتاب:

حديث الثلاثة الذين في الغار

المؤلف:

الدكتور سيف الإسلام حسين عبد الباري

مراجعة وتصحيح وتعليق:

الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد

إشراف:

الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي

تصميم الغلاف: مصعب علي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ١٦٥٣٩ / ٢٠٠٥

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة ▪ للمؤلف ▪ للنشر والتوزيع وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكتروني أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو دون أخذ موافقة كتابية مُسبقة من المؤلف.

دار الأبرار المنصورة

ت: ٠٥٠٢٢٢٥٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

﴿سورة البقرة ﴿آية ١٥١﴾

مقدمة

أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم، ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ".

والحديث يبين أنه ﷺ قد فُضِّل على النبيين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وهم خير البشر، مما يؤكد أنه ﷺ أفضل الخلق جميعا، في كل شيء، فهو مفضل على كل البشر في الفصاحة والبيان، وإيجاز الكلام، الذي يحوي من المعاني ما يعجز أكثر البشر عن أن يأتوا بمثل ألفاظه القليلة، ذوات المعاني الكثيرة، فلا يقدر عليها غيره ﷺ إلا في ألفاظ أكثر كثيرا.

ولهذا فإن النظرة السريعة إلى حديث رسول الله ﷺ لا يمكن أن تفي بالفهم المطلوب لهذه الأحاديث، بل لابد من مراجعة الفكر، وإعادة

النظر مرات ومرات، حتى نطمئن إلى أننا قد أحسنا فهم حديث الرسول ﷺ على الوجه الذي يليق به.

ومن هذا الوجه ـ معاودة الفكر وتدقيق النظر ـ نتوقف أمام القصص النبوي الشريف لنستخلص ـ قدر المستطاع ـ الحِكَم والمعاني التي يحملها السياق، ويصعب أن نفطن إليها، إذا تعاملنا مع هذا القصص، من الناحية الخبرية المجردة فقط.

ولولا أن القصة لها رسالة لا يقوم بها الخبر المجرد، لما كان لها قيمة حقيقية، ولهذا وجدنا القرآن الكريم يَكثُر فيه القصص، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2].

[1] سورة الأعراف: من الآية ١٧٦.

[2] سورة يوسف: من الآية ١١١.

وقد تناولنا القصص القرآني، من ناحية الخبر والسياق ـ أيضا ـ في كتابنا: "بين القصة والخبر في نصوص الشرع".

ومع أن القصص القرآني معجز، لأنه كلام الخالق سبحانه، إلا أن القصص النبوي الكريم يحمل في ثناياه صفات السمو والعلو، والكمال، حتى وإن لم يكن معجزا، لأنه موصوف بجوامع الكلم، ولهذا فهو يحمل في السياق القصصي معاني كثيرة لم تنطق بها الأخبار، ولكن تشير إليها الصورة القصصية المرسومة بعناية وإتقان، وكيف لا وقد قال سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1].

إن أهم ما تغاير به القصة الخبر أنها تأخذ بالقلوب والألباب، وتأسر النفوس مما يدفع الخيال دفعا إلى الانطلاق بعيدا عن دائرة اللفظ أو الخبر المنطوق، ليسبح في آفاق بعيدة، يطالع بخياله كثيرا مما لا تقع عليه العين، بل لا أكون مبالغا إذا قلت إن لكل أحد من الناس أن يرى بخياله ما لا يراه الآخر، وإن كان الكل يدور في فلك واحد.

---

[1] سورة النجم: الآيتان ٣، ٤.

ولعل عملنا في هذا الكتيب يكون حافزا لمن أراد تناول حديث رسول الله ﷺ بالشرح والبيان أن لا يظل رهن الخبر المنطوق، بل ينطلق إلى كل معاني الحسن والجمال، التي تشع بها ألفاظ الرسول ﷺ، ليتسنى له التقاط معالم الحكمة التي يهدف إليها حديثه ﷺ.

ولنا أن نتساءل: هل نستطيع الجزم أن كل ما يلمسه الخيال ويطَّلع عليه، مقصود من القصة؟

ونجيب على هذا من وجهين:

☜ الوجه الأول:

بالنسبة للقصص القرآني يمكن أن نؤكد بيقين إن كل ما يخطر على قلب بشر، ويدركه الخيال مهما بعد، ليس غائبا ـ بحال من الأحوال ـ عن سياق القصة، لأن الخالق سبحانه يقول في محكم آياته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]، وبالتالي فإن خيالات البشر، وما يدور في العقول والنفوس مسطور أزلا، يعلمه الخالق سبحانه.

[1] سورة ق: ١٦.

☜ الوجه الثاني:

بالنسبة للحديث النبوي الشريف فإن الذي يمكن أن نؤكده هو أن كل المعاني التي تليق بجوامع الكلم، على الوجه الحسن، الذي يليق بمكارم الأخلاق، نقول إنها مقصودة ومرادة، لأن رسول الله ﷺ ـ وإن لم يطلع على قلوب البشر ـ إلا أن الله آتاه الإلهام بجوامع الكلم، وكأنها وحي يوحي، ولهذا ليس غريبا ولا عجيبا أن يحيط قصصه ﷺ بمعاني الحكمة والجمال، بما لا يقدر عليه غيره من البشر، وكل ما يمكن أن يوصف به هذا القصص من معاني الحسن، والرقة والجمال، لا يكون من قبيل التكلف أو الاختلاق.

ومع كل هذا نجد أن الكثرة الكاثرة، ممن يتناول حديث رسول الله ﷺ يتوقفون عند الأخبار الظاهرة، أو كما نقول الأخبار المنطوقة، وقليل منهم من يغوص ليستخلص من جوامع كلمه ﷺ ما يليق بهذا الكلم من معاني وحكم.

ونحن في هذا الكتيب نجتهد قدر الطاقة أن نبين منهاجا للتعامل مع جوامع كلمه ﷺ، لنبين هذا الفرق الهائل بين تناول حديث الرسول ﷺ

وقصصه بمنظار الباحث عن الأخبار المجردة، وبين التناول القصصي الذي يليق بجوامع الكلم، ليستخلص الكثير والكثير مما لم ينطق به الخبر المجرد.

وكل ما أرجوه أن يوفقني الله تعالى لبيان هذا المنهاج على نحو ييسر لغيري الاهتداء به في اكتشاف الدر المكنون في حديث الرسول ﷺ، والذي لم ينجلِ منه حتى عصرنا هذا إلا القليل.

وإن الله لهو الهادي إلى سواء السبيل.

الثلاثة الذين في الغار

قصة الثلاثة الذين حبسوا في الغار واحدة من أهم القصص، الذي جاءت به السنة النبوية المطهرة، والتي حفظها الله تعالى، وإن اختلف منهج حفظها عن حفظ القرآن الكريم إلا أن الحافظ لهما هو الله.

وقد تم الحفظ على أيدي الرجال الذين اصطفاهم الله تعالى لهذه المهمة، ففتح لهم مغاليق الصعاب، وألهمهم الرشد والتوفيق والسداد، فوصلت إلينا السنة تماما كما وصل إلينا القرآن، مبرأة من كل باطل، حتى أن ما اختلقه أهل الأهواء ونسبوه للسنة تصدى له أهل العلم بالتنبيه والبيان، فاطمأنت القلوب، وسكنت الأنفس إلى صحة ما نقله الأئمة، وأسندوه إلى رسول الله ﷺ.

هذه القصة:

اخترت هذه القصة لتكون عنوانا لهذا المقال، نظرا لأنها مما يحب الدعاة تناولها في مناسبات متعددة، دون أن يهتم أحد بصفة التناول التي استفضنا في شرحها، في هذا الكتيب، وكذلك في كتابنا: "بين القصة والخبر في نصوص الشرع"، والتي تدور حول المعنى المستخلص من الكلام إذا تناولناه كخبر، والمعنى المستفاد إذا تناولناه كقصة على حسب السياق.

ونظرا لما آلت إليه أحوال المسلمين، من التردي والانحطاط، أصبح لزاما أن نبحث عن الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الهاوية، والتي لم ننجح ـ حتى الآن ـ في كشف اللثام عنها، مع أن خُطب الجمعة مستمرة كما كانت في كل العصور، ودروس الوعظ لم تتوقف.

وليس معنى هذا أنني أجزم بأن سببا ما، أو مجموعة من الأسباب هي التي أدت إلى ذلك، بل إنها محاولة مني واجتهاد، عسى أن تصيب إحدى هذه المحاولات الهدف، وتكون منارة في طريق التصحيح،

والعودة إلى أصول ديننا وشريعتنا على الوجه الذي يجب أن نكون عليه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[1].

ومما يزيد الجراح ألما وضراوة أن كثيرا من طرق التناول للنصوص الشرعية تؤدي إلى طمس معالم الجمال والحسن فيها، مما يزيد النافر نفورا والبعيد بعدا، بل إن كثيرين يخشون أن يظهروا ما ينعكس عليهم من حيرة واضطراب، بسبب سوء العرض، خوفا أن يكون ما يعتريهم من ذلك مما يطعن في إيمانهم وتقواهم.

ولكم تملكني الحزن عندما همس بعض إخوتي بقوله: هو لازم عشان نصلح حاجة نفسد أخرى؟.

وكان ذلك تعليقا على ما يتبارى فيه أهل الوعظ عند تناول هذه القصة.

إن تجريد الكلام من مغزاه الذي من أجله صيغ في صورة قصة، ليصبح مجرد خبر لا يشغل ناقله إلا البراعة في أدائه، واستمالة

[1] سورة آل عمران: ١١٠.

الأسماع بصوته، إن هذا لمن الطوام الكبرى التي أثقلت كاهل الأمة على مر عصورها.

إن دغدغة المشاعر بحلو الكلام مقبول، إذا كانت الأم تساعد طفلها لينام، ولكن عندما يصبح هذا حال الأمة بالنسبة لأمور دينها، فإن النتيجة التي لا مهرب منها أن يصبح الدين طقوسا تؤدى بلا روح أو حياة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن أخطر ما أوصلنا إليه هؤلاء الوعاظ، ومن سار على نهجهم، أنهم ساهموا في تغييب العقول، وتزيين مقوله أهل الضلال: الدين أفيون الشعوب.من أجل ذلك اخترت هذه القصة لأبين من خلالها المنهج الذي أراه واجبا في تناول القصص القرآني، والقصص النبوي، والله من وراء القصد.

قصة هؤلاء الثلاثة:

والقصة كما رواها الإمام مسلم في صحيحه: "عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا

كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ"، وفي رواية الإمام البخاري، وصف هؤلاء الثلاثة بأنهم كانوا ممن كانوا قبلكم: "انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ،

فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ"[1].

وقبل تناول كل قصة على حدة، نلاحظ أن قول هؤلاء الثلاثة: "إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ"، وهذا يدل على أنهم كانوا على أعلى درجة من تحقيق مفهوم العبودية لله رب العالمين، سواء أكان بالعبادة أم بالأعمال الصالحة، لأنه لا يمكن أن يتمكن هذا اليقين من أنفسهم إلا إذا كانوا على إدراك كامل لعظمة الخالق سبحانه، وأنه سبحانه هو رب الأسباب، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[2]، دون توقف على سبب.

[1] صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٩).

[2] سورة يس: ٨٢.

وأما كيف التقى هؤلاء الثلاثة وما الذي جمع بينهم؟

هل كانوا أصدقاء في رحلة ما، مع ما يبدو من تفاوت بين أنماطهم، ومع هذا فليست صداقتهم مستبعدة، أم أنهم التقوا في الغار بسبب المطر، دون سابق معرفة بينهم، ولعل كل واحد منهم كان في غاية مغايره لغاية الآخر، وهذا أمر قد يكون هو المتبادر من السياق، وقد يكون غير ذلك، فإن هذا مما أغفله الحديث، ولعل القصد من ذلك أنه لا عظة مستفادة من ذلك، بل العبرة بما وقع لهم في الغار.

ومن ذلك ندرك أن القصة لم يرد بها التسلية، بل المقصود أن نصل إلى ما لم يحمله الخبر، وهو العظة والاعتبار الذي تحمله القصة.

وكأن إغفال الجامع بينهم هدفه أن تتجه العقول إلى التفكير الهادف، والتفكر فيما ينفع ويفيد، والبعد عن البحث فيما لا طائل وراءه.

بين الصدق واليقين:

هذه القصة كان من الممكن أن تنمحي بموت أصحابها، أو قبل ذلك أو بعده بقليل، فإن كثيرا غيرها مما يجري في الحياة لم يطلع عليه أحد من الخلق إلا من كان في دائرة أصحاب الحدث.

ولكن في هذه القصة يمكننا أن نقول إنه كان مقدرا في الأزل أن يقصها رسول الله ﷺ تنبيها للنفوس والأفئدة لما تحمله من عظات وعبر، وهكذا جاء بها الوحي.

وقد ساق القدر هؤلاء الثلاثة إلى الغار ليحدثنا كل منهم عما حدث له، كما هو مقدور في كتابه سبحانه تعالى، فالله إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب، وهكذا جرت المقادير بسقوط المطر والتقاء هؤلاء الثلاثة امتثالا لمراد الله تعالى الذي لم يطلع عليه أحد، ولهذا لم يندس بينهم من يفسد وصف الصدق واليقين الذي اجتمعوا عليه ثلاثتهم، مع أن ما ألجأهم إلى الغار ـ وهو الاحتماء من المطر ـ كان يمكن أن يدفع غيرهم من أهل السوء والفساد للاحتماء به، ولكن الله تعالى له حكمة

لابد أن تنفذ على الوجه الذي يريده جل في علاه، فلم يوجد بينهم ما يعكر هذا الصفاء، وصدق اليقين بالله عز وجل.

إن كثيرا مما تردده الألسنة من حيث التوكل على الله، والإيمان بأنه مقدر الأقدار، وأنه قد أحاط بكل شيء علما، وأنه لا يعجزه شيء، قل أن توجد ثمرته في النفس إلا قليلا، حتى وإن كان قائله صادقا فيما يقول.

لأنه شتان بين الصدق واليقين، وإن كان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالصدق ينشأ عن المداومة على تحري الحقيقة، بينما اليقين ينشأ عن القدرة على استحضار الغيب وكأنه أمر ملموس مشاهد، وهذا لا يكفي فيه التحري، بل لابد له من مجاهدة النفس وترويضها بأعمال الطاعة والمراقبة، حتى تتنزل عليها رحمات الله تعالى فيقذف اليقين في قلب صاحبها، ويصل إلى مرتبة الإحسان التي بينها قوله ﷺ: "الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[1]، وعندما يتحقق هذا المعنى فلن يوجد شيء يفسد على صاحب هذه

[1] صحيح البخاري، رقم ٤٧٧٧.

المنزلة حياته أبدا، لأنه يشعر دوما أنه في معية الله تعالى، وكلما ازداد له خضوعا وذلا كلما تكشفت له معالم الحكمة فيما يجري من أقدار، والتي لا تحمل إلا الخير حتى وإن كان في أعين الناس غير ذلك.

وكل من تمكن اليقين من قلبه فهو صادق لا محالة، ولكن ليس كل صادق على يقين، ولهذا تراه يتملكه الخوف والجزع، ويطرأ عليه القلق والاضطراب، وكل هذا وإن كان من سمات البشر، إلا أن أهل اليقين سرعان ما يتغلبون عليه، ولا يستسلمون لكل هذه المنغصات.

ولذلك لم يجزع سيدنا إبراهيم وقد ألقي في النار، ولم يكن سيدنا يعقوب عليه السلام حين ابيضت عيناه من الحزن فاقدا لليقين، بل على العكس لقد أكد هذا اليقين بقوله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]، والحزن من المشاعر الإنسانية التي لا تطعن في اليقين، لأن الحزن لا يدل على الشك بالضرورة، بل إن الحزن قد

[1] سورة يوسف: ٨٧.

يكون بسبب شدة الشفقة، وعظم الحنان والمحبة، وهي من الصفات المحمودة، ما لم تخرج بصاحبها عن إطارها الحميد.

وهؤلاء الثلاثة عندما قالوا، كما في رواية الإمام مسلم: "لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ"، بصيغة الترجي وليس التأكيد، فهو من تمام الأدب مع الله تعالى، لأنه سبحانه لا يجب عليه شيء، بل أفعاله سبحانه وتعالى لحكمة لا تدانيها حكمة، ولا يمكن للعباد إدراكها إلا بما يطلعون عليه من دلائلها، ولهذا فإن تقديرهم للأمور هو الذي يتمكنون من تلمس وجه الحكمة فيه، فمهما كان صدقهم ودرجة اليقين لديهم لا يملكون أن يعلموا ما هو مقدور في غيب الله، وقد يكون مقدرا لهم الموت في الغار، حتى مع توجههم إلى الله بالدعاء بكل صدق ويقين، ولعل موتهم لو شاء الله أن يقع يكون خيرا لهم.

وإذا كانت نجاتهم من الموت في الغار قد أصبحت غاية أمانيهم، فلأنهم يدركون الحكمة منها، والتي قد تتمثل في تجنيبهم المعاناة الشديدة هم ومن ينتظرهم.

مع أنه قد يكون في عدم نجاتهم حكم جليلة أخرى لا يمكن لهم إدراكها، والتي لا يعلمها أحد غيرهم إلا بعد ظهور أثرها.

فمثلا قد يكون موتهم في الغار سببا في دخولهم الجنة، بينما في نجاتهم ما يعرضهم لفتن قد تتغلب عليهم وتكون سببا في دخولهم النار، وكل هذا لا تدركه العقول إلا بعد حدوثه، بينما هو في علم الله تعالى أزلي لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل.

وأما كونهم على يقين، فلأنهم في هذه المحنة لا ينفع صدق زائف، بل إن الشك سوف يداخل القلب، حتى وإن لم يكن لهم حيلة إلا تجربة الدعاء، فليس الدعاء في ذاته دليلا على اليقين، بل لعله يكون أحيانا وسيلة العاجز، دون يقين حقيقي أو اطمئنان بالدعاء.

فلو كان لديهم شك عندما توجهوا إلى الله تعالى بالدعاء لظهر أثر ذلك في عدم انكشاف الصخرة، لأن تلبية الدعاء مع الشك معناها نسبة التناقض إلى الله والعياذ بالله، وإذا حدث هذا كما يملي الله أحيانا للظالم، فلن يحدث معهم ثلاثتهم في هذا الموقف، وبخاصة أنهم أعلنوا عن نيتهم بأنهم يتقربون بالعمل الصالح، فلو أجيب

دعاؤهم مع شكهم، لكان تغريرا بهم، وتنزه الله تعالى عن ذلك وعلا علوا كبيرا، ففي الحديث: «أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، فالشك ينافي مفهوم العبودية الحق، الذي من أجله خلق الإنسان.

ولليقين مراتب تحدثنا عنها في غير هذا الموضوع، ونقصد به أنه على قدر اليقين تكون الإجابة، فكلما عظمت المسألة احتاجت إلى درجة أعلى من اليقين، حتى يستجيب الله تعالى لها.

ومسألة انفراج الصخرة ليست بالأمر الهين، وبخاصة أننا بالضرورة لابد أن نستحضر أنهم حاولوا زحزحتها من مكانها جهد طاقتهم، ولكنهم عجزوا، ولو توجهوا بالدعاء دون محاولة لكان معناه تعطيل سنن الله في الخلق، ولقعد الناس في بيوتهم وطلبوا من الله الرزق، وهذا كله غير مقبول لأن الله جل في علاه استعبد الناس بعمارة الأرض والسعي فيها لطلب الرزق، فمحل الدعاء يكون مع الأخذ الأسباب، وليس دونها ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا

فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[1]، وهكذا نتبين أنهم استنفدوا وسعهم في زحزحة الصخرة ولكنهم عجزوا، فتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء.

☜ومما يدل على صدق اليقين في قلوبهم، ما لمسوه من ثقل الصخرة وعدم القدرة على تحريكها، وهذا يدل على يأسهم من أن تحركها أي عوامل خارجية طبيعية معتادة، فالتوجه إلى الله تعالى في هذه الحالة إن لم يكن نابعا من اليقين في قدرته وقوته وسلطانه لترتب عليه الموت، فانفراج الصخرة أثر لليقين الصادق الذي يؤكد صلاح هؤلاء النفر وتحقيقهم مفهوم العبودية الصحيح لله رب العالمين.

[1] سورة الملك: ١٥.

الصحبة الطيبة:

ومما يلفت النظر في هذا الحديث أيضا أن الصخرة كانت تتزحزح بمقدار لا تتعداه، كاستجابة لدعاء كل واحد من الثلاثة، ولا يمكنهم الخروج إلا بعد أن يدعو كل واحد منهم بدعائه، وكأن الصخرة كانت حريصة على سماع قصة كل واحد منهم، فلم تنفرج بالقدر الذي يسمح لهم بالخروج إلا بعد انتهائهم من قصتهم، وليس هذا وحسب، بل إنها كانت تبدي الاستجابة لكل واحد تحفيزا لأن يستمروا في حكايتهم.

ومما لا شك فيه أن الصخرة مأمورة، ولم تفعل هذا إلا امتثالا لأمر الخالق سبحانه جل في علاه.

وعدم انفراج الصخرة مرة واحدة، ولو حتى بعد فراغهم الثلاثة من الدعاء، بل انفرجت بقدر محسوب، يمكن أن يحمل رسالة هامة وهي الحرص على مصاحبة الصالحين، وما أجمل هذا التصوير النبوي الشريف: "إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ،

كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[1].

فلعل هذا التوافق بين الانفراج الجزئي والدعاء يشير إلى أن أحد الثلاثة لو كان من أهل السوء لما انفرجت له الصخرة، ولما استطاعوا الخروج.

☜والقصد أن هذا المشهد يحمل دلالات وليست مجرد حبكة قصصية، فإن القصص الشرعي منزه عن ذلك، بل إن مواطن الإعجاز فيه أنه بكل ما يحمله من معاني الحسن والجمال، يحمل مع هذا حكم ومعاني ورسائل مقصوده، ولعلها محمولة في القالب القصصي ليظل عطاؤها مستمرا، ومتجددا مهما مرت الأزمنة، وكثر الباحثون.

وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

[1] متفق عليه، صحيح البخاري رقم ٥٥٣٤، صحيح مسلم رقم ١٤٦.

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وبالعظمة هذا الوصف "وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ".

☜إنها ليست حكايات للتسلية، بل إنها آيات وعِبر تسمو بها الروح حتى تصافح الملائكة أو تصافحها الملائكة، فتتنزل الرحمات والهداية، في ثنايا عطف وحنان، يمسح كل عَبرة، ويزيل كل ألم.

وإذا كان هذا وصفا للقصص القرآني، فإن القصص النبوي حتما سيتحلى بنفس الصفات، فالكل وحي من عند الله تعالى، وكيف لا والرسول ﷺ مبيِّن لما جاء في القرآن الكريم، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

إن من أفدح الأخطاء التي يقع فيها البشر أن يتناولوا القصص الشرعي، بشقيه من القرآن والسنة، كما يتناولون القصص البشري، لا يرون فيه إلا بقدر ما تسمح عقول مبتكريه، وغفلوا عن أن صنعة الخالق لا يمكن أن يكون مثلها شيء من إبداع البشر.

---

[1] سورة يوسف: ١١١.

[2] سورة النحل: ٤٤.

☜وإذا كان اللفظ مثل اللفظ واللغة هي اللغة فما ذلك إلا ليتمكن المرسل إليهم من فهم الخطاب، ولو أتى اللفظ والتركيب اللغوي بما ليس في لغتهم أو طاقتهم على الفهم لما تحقق المقصود منه، وكذلك لينجلي ويظهر إعجاز خطاب الخالق عن خطاب المخلوقين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

☜وهكذا لا يعنى كون القصص بنفس الألفاظ أو نفس اللغة أنها مثل قصص البشر، إن هذا لهو عين الجهل وسوء الفهم.

إن اليقين الذي يجب أن يستقر في النفوس أن القصص الشرعي يتسع لكل ما يدركه العقل، ويزيد عليه، فليس من قبيل التكلف أن نَخرج منه بكل هذه المعاني، ثم يأتي غيرنا فيأتي بالمزيد.

[1] سورة إبراهيم: ٤.

المعجزة أو الكرامة:

بقي لنا ملمح أخير قبل أن ننتقل إلى قصص الثلاثة، ويتمثل هذا الملمح في حركة الصخرة وانفراجها، أليس هذا من قبيل المعجزات الحسية، فهل هذا المعنى مقصود من سياق القصة؟

☜ وللجواب عن ذلك:

نلاحظ أن الحديث في بعض رواياته الصحيحة أيضا قد ذكر أن هؤلاء الثلاثة: "مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ".

☜ فهل كان مقصودا بهذا الوصف انتهاء زمن المعجزة بالنسبة للبشر؟ وبالتالي لا ينتظر أحد بعد خاتم الرسل ﷺ وقوع مثل هذه المعجزات؟.

☜ أم أن ذكر هذا الوصف "مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"، كان مقصودا به مطلق الخبر، بمعنى أن هذا كان حال الثلاثة دون أن يكون مقصودا به بيان حكم ما؟

☜ أم أن المقصود من تخصيصهم بهذا الوصف أن لا ينشغل صحابة رسول الله ﷺ بالبحث عنهم فيما بينهم لو كانوا من قومهم؟

تساؤلات عدة يحتملها سياق القصة، ويجيب الإمام الباقلاني عن أهمها بقوله: "أما الفرق بين المعجزة والكرامة فهو أن الأمر الخارق للنبي مقرون بالتحدي والاحتجاج، وأن صاحب الكرامة لا يدعي النبوة بكرامته ولو علم الله أنه يدعي بها النبوة لما أجراها على يديه"[1].

☜ والمعنى الذي نخرج به من ذلك: أن حدوث مثل هذه المعجزة يدخل في مفهوم الكرامات، والتي لا يمكن أن يدعي أحد انتهائها، بل هي موجودة ما شاء الله لها أن توجد، ولكن لعل أهم ما يميزها أنها لا تكون على سبيل الإبهار والتحدي، الذي يتنافي مع التذلل والرجاء بين يدي الله بالدعاء، والله أعلى وأعلم.

ونبدأ بالقصة الأولى بحسب ترتيبها في الحديث الشريف ثم التي تليها وما بعدها.

[1] موقف ابن تيمية من الأشاعرة لعبد الرحمن بن صالح المحمود (٢/ ٥٤٩)

القصة الأولى

يمكن أن نلخص القصة الأولى في حال صاحبها مع والديه، والذي استحق به أن تنفرج الصخرة انفراجة يسيرة.

وشروح الحديث اهتمت بالناحية الخبرية على خير وجه، مما أدى إلى فقدان أهم ملمح جمالي عظيم في هذه القصة.

ففي عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (قَوْله: (يتضاغون) أَي: يصيحون، من ضغا إِذا صَاح وكل صَوت ذليل مقهور يُسمى ضغواً، وَقَالَ الدَّاودِيّ: يتضاغون أَي: يَبْكُونَ ويتوجعون)[1].

والشروح الأخرى لم تخرج عن هذه المعاني، ولم ترتسم الصورة كما يذكرها الحديث: "وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ".

١ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام بدر الدين العينى الحنفى (٢٢/ ٨٦)

ويمكن أن نرى الصورة على أن هذا الراعي ـ صاحب القصة ـ قد عاد في هذا اليوم مساء، أي متأخرا عن عادته في الرجوع من الرعي، بعد أن نأي به الشّجر، "وَالْمرَاد أَنه بعد عَن مَكَانَهُ الَّذِي يرْعَى فِيهِ على الْعَادة لأجل الْكلأ، فَلذَلِك أَبْطَأَ، ويفسره أَيْضا رواية: فَإِن الْكلأ تناءى عَليّ: أَي: تبَاعد، والكلأ: العشب الَّذِي يرْعَى الْغنم مِنْهُ".

ولما حلب اللبن كعادته ليسقي أبويه وأولاده، وكان يبدأ بأبويه "كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ".

☜ تقديم الوالدين على من سواهما:

البداية بالوالدين قبل الأولاد والزوجة، وكل من سواهما، لاشك أنه من البر بهما، والذي ينبع من صلاح حقيقي، ونفس طيبة، فهاهما والداه وقد أصبحا في مرحلة الشيخوخة، وهي مرحلة العجز والحاجة، لا تلهيه دنياه عنهما، هذه الدنيا المتمثلة في الزوجة والأولاد، بل يبدأ بهما تعظيما لشأنهما، ورفقا بهما ورحمة، فإن هذه

المرحلة تؤذن بازدياد الضعف بعد الضعف، فماذا لو لم يكن بارا بهما، كم هو مرير أليم أن يقع الأبوان فريسة القهر والهوان، إذا ما ألجأتهم الشيخوخة والحاجة إلى ابن من أبنائهما فيجدان إهمالا أو تفضيلا للزوجة والأولاد، إنه شعور مروع فليس بعد الضعف قوة، وليس بعد العجز غنى، ولا مهرب أمامهما من الاستسلام لقدرهما، وياله من قدر قاس إذا تنكر الأبناء، ونسوا كيف شبوا ونشأوا.

كيف يكون حال الأبوين وقد أقعدهما العجز وهما ينظران إلى الابن يحنو على الزوجة والأولاد لا يمل من وجوده بينهم، وإذا ما جاء إلى الأبوين كان دائما على عجلة من الأمر تتناوشه مشاغل الدنيا، لا يكاد يتبادل معهما حوارا، أو يتحسس منهما حاجة، بل كأن لسان حاله يقول ألا يكفي أني أقوم على طعامكما وشرابكما، ويالها من مفارقة قاسية.

☜إن حال الأبوين في مثل هذه الحال سوف يكون كمن ينتظر الرحيل على أشد من الجمر، طمعا في الهروب من هذا النكران، ولكن هل ينتظر الموت رغبة أحد؟

إنها الدموع التي تنهمر في صمت وخفاء، يصعب عليهما أن تبوح عيونهما بما يضويها ويؤرقها، فلا ينامون إلا وقد ابتلت وسادتهما من كثرة الدموع، ولا يستيقظون إلا وهم يتمنون لو أنهم لم يستيقظوا.

هل تدري أيها الابن قدر المرارة التي يستشعرها والداك وأنت تبذل الوسع في إسعاد الزوجة والأولاد، بينما لا تكاد تشعر بحاجة أبويك إلى قليل من الصحبة والعطاء، هل تنتظر أن يتسولا ذلك منك؟.

إن عطاء الأبوين لا يحتاج إلى توجيه أو تذكير، فإنهما يستشعران الأبناء بنبضات القلب، وبخلجات النفس، لا يتوقف الشعور بهم على رؤيا البصر أو لمس الأيدي، بل أبناؤهما يعيشون في خلايا جسديهما، لا ينفصلون عنها، وكيف لا وهم بضعة منهما.

إنها الأبوة والأمومة يتملكها حب الأبناء، ولا تملكه، بل لو أرادت التنصل منه لما استطاعت، حتى وإن طفا على الوجه ما يشي بشيء من هذا فسرعان ما يزول، ومهما اشتدت بهم المحنة قل أن تجد منهم من يدعو على ابن من أبنائه بشيء لا يحبه، ولا يرضيه، إنها

فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا يبخل الأب أو الأم بحياته ليحي ابنهما، يفنون ليبقى ابنهما ويعيش.

وما من عطاء يعدل عطاء الأب والأم، مهما بلغ ومهما ظن ابن من الأبناء أنه وفَّى وأعطى، ولهذا وصى الخالق سبحانه وتعالى بهما، وقرن بين عبوديته سبحانه، وبين الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1].

ولأن كل تكليف ثقيل، كان لزاما أن يستعين الأبناء بالتوجه إلى الله تعالى، ليعينهم على حسن البر بالأبوين.

☜ولعل هذه القصة تبين أن الصدق مع الله تعالى الذي يدل على تمكن الإيمان في قلب هذا الراعي، هو أعظم ما يتقرب به الإنسان إلى ربه، لأن الخطأ في الاجتهاد في الطاعة بعد بذل الوسع والتحري، يغفره الله تعالى بينما أي خلل في الصدق مع الله يجعل العمل غير مقبول، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2].

---

[1] سورة الإسراء: من الآية ٢٣.

[2] سورة البينة: من الآية ٥.

والإخلاص من أعمال القلوب التي لا يطلع عليها البشر، ولهذا نحاول الاجتهاد في الوصول إليه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، حيث إنه ـ من وجهة نظرنا ـ أهم الأعمال في هذه القصة، والله أعلى وأعلم.

المعنى الغائب في القصة:

هل رأيت الآن كيف غاب هذا المعنى عن أصحاب الشروح، عندما أخذوا القصة مأخذ الخبر، فقالوا: "قيل: نَفَقَة الْأَوْلَاد مُقَدّمَة على نَفَقَة الْأُصُول، وَأجِيب بِأَن دينهم لَعَلَّه كَانَ بِخِلَاف ذَلِك أَو كَانُوا يطْلبُونَ الزَّائِد على سد الرمق، أَو كَانَ صِيَاحهمْ لغير ذَلِك".

أي نفقة تلك التي يتحدثون عنها، وقد قال الله جل جلاله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1].

[1] سورة الإسراء: من الآية ٢٣.

إن أبويك الآن عندك في كنفك ورعايتك، فعن أي نفقة يتحدث هؤلاء الذين يبحثون عن أيهما يقدم، الأبناء أم الوالدين؟

ولو كان الأمر على هذا الوجه، فأين التعارض بين أن يسقي الأولاد ويعطهم نصيبهم من اللبن، ويحتفظ لأبويه وهو واقف عند رأسهما بنصيبهما؟

إن الأمر ليس على هذا النحو مطلقا، وبخاصة أننا أمام فترة من الوقت ليست قصيرة، "فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبُهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ"، وهذا يعنى أنها امتدت لعدة ساعات.

وهل القسوة على الأولاد لغير حاجة مما يُطلب به رضى الله تعالى؟

هل يكفي أنه انتظر هذه الساعات لينال رضى الخالق سبحانه؟

إن الصورة بهذه الطريقة الخبرية تخلو من أي معنى مقبول للعمل الصالح الحقيقي، بل تكاد الصورة على هذا الوجه أن تكون أدعى إلى الغلظة والجفاء وليس الرحمة والعطف.

ومع إقرارنا بأن حرصه على أن لا يسقي أبناءه قبل والديه، هو من الأعمال الصالحة التي تدل على نفس طيبة بارة، ومع هذا فإن هذه

الصورة مقبولة عندما يرجع من عمله فيبدأ بأبويه، قبل أولاده، ولكن في هذه الليلة، ما ذنب الأولاد وقد نام أبواه؟

☜هل يكون نصيب الأولاد الصغار ـ الذين لا حيلة لهم ـ أن يُعاقبوا بالجوع، ولا حيلة لهم في شيء، ولم يجرِ عليهم تكليف بعد؟

نعم من الأعمال الصالحة أن يبدأ بأبويه قبل أولاده عند اجتماعهم، ولكن هنا نام الأبوان، والصغار يتوجعون من شدة الجوع، ولو انفرجت الصخرة بسبب هذا العمل، لكان معناه إقرار فعله على أنه الصواب.

☜ومع أن المجتهد يقبل خطأ اجتهاده، إن وصل إلى الغاية في اجتهاده، فإن عمله يقبل، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، ومعنى هذا أن تصرف الراعي بتركه الأولاد يتضورون جوعا رعاية لحق والديه من البر بهما، يمكن أن يكون مقبولا منه، ويؤجر عليه، ولكن انفراج الصخرة يدل على أن عمله قد بلغ الغاية في الصواب، فكيف يجتمع هذا مع صراخ الأولاد جوعا؟

في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ، عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ»[1]، وفي رواية عند الطبراني: «كَفَى إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَعُولُ قُوتَهُ»[2] .

☜ويشير هذا النص إلى أن حبس الطعام عن الصغار الذين لا حيلة لهم، لا يكون من الصواب، حتى وإن لم يكن إثما نظرا لأن الراعي لم يقصد الإضرار بهم، وغلب على ظنه أن يفعل الخير.

ولكن انفراج الصخرة يؤكد أن فعله كان صوابا، فيكيف نرفع هذا الإشكال؟

ولرفع هذا الإشكال نقول: إن خبر الراعي لو تلقيناه في سياقه القصصي لأدركنا أن كل معاني البر والرحمة والخير كانت تتملك على هذا الابن نفسَه وقلبَه، فلم يدرك مما حوله شيئا، إلا أنه بين

---

[1] صحيح مسلم (٢/ ٦٩٢)

[2] المعجم الكبير للطبراني (١٣: ٥٢٤)

الخوف والرجاء أن لا يكون قد ضيع الأمانة التي استودعها الله له، والديه.

☜إن الإنسان عندما يتملكه أمر جلل ويستحوذ على عقله ووجدانه يصبح إدراكه لكل ما يدور حوله مشوشا، وليس من السهل أن يحسن التفكير على وجه صحيح في أمر ما.

إن الذي سيطر على جنانه وإحساسه أنه قد أهمل وفرط في أداء حق والديه، عندما استدرجه المرعى ولم يتنبه إلى انتظار والديه للحليب، حتى ناما.

من ذا الذي يعذره أمام الله تعالى إذا سأله كيف غفلت عنهما ولم تقم بحق رعايتهما، ترى هل يمكن أن أتدارك هذا الخطأ؟

إنه لا وسيلة لتدارك الخطأ إلا إذا استيقظ والداه وشربا نصيبهما، فهل يوقظهما؟ وماذا لو تسبب في ألمها بإيقاظهما أكثر من تركهما نياما؟

نستطيع أن نقرأ ما يدور في نفسه وهو يقول: ماذا أقول لربي ومن ذا الذي يعذرني بين يديه سبحانه إذا سألني لم عالجت الخطأ بخطأ أكبر منه، لا لن أوقظهما، "وَفِي حَدِيث ابْن أبي أوفى: وكرهت أَن

أوقظهما من نومهما، فَيشق ذَلِك عَلَيْهِمَا"، وسوف أنتظر أن يستيقظا في أي لحظة.

وقبل أن تهدأ نفسه وتطمئن إذا به يتلوى مما يعتريه من أفكار حتى ليكاد ينطق بغير لسان قائلا: يا هول ما ينتظرني إن قدر لهما أن يموتا أو أن يموت أحدهما، أي أرض تقلني لو حدث هذا، وأي سماء تظلني إن فاتني أن استرضيهما وأسألهما العفو والصفح والرضوان، كيف أقف بين يدي ربي وماذا أقول ومن يعذرني منه سبحانه، لو حدث هذا، يالها من فجيعة ويالها من مأساة.

ثم إذا هما بحمد الله تعالى يتنفسان، ولعلهما يستيقظان الآن، فتستبشر نفسه أن يتمكن من نيل عفوهما ورضاهما، وكأن نبضات قلبه تقول بدلا من لسانه: ومالي لا أطمع في رحمة ربي، وأتشبث بالأمل والرجاء، فلا يفجعني فيما لا تحمد عقباه، إن ربي أرحم بي من أن يموت الآن أبواي أو أحدهما.

وهاهما ولله الحمد يتحركان لعلهما يستيقظان الآن فأجثو عند قدميهما وأسألهما العفو والمعذرة، حتى ولو لم يستيقظا الآن

فلعلهما يستيقظان بعد قليل، وليس أقل من أن أنتظر حتى وإن طال بي الوقوف، فإن رضاهما عني لا يعدله شيء.

إن ربي رحيم بي ولن يفجعني فيهما بفضله وكرمه، وها هما يستيقظان والحمد لله تعالى، وها أنا أسارع إليهما في لهفة وطمع أن يشربا وأحظى بعفوهما ورضاهما.

ويا رب لك الحمد أن تقبلت دعائي ورجائي الذي لم ينقطع أملا في رحمتك وطمعا في رضاك وعفوك يا الله.

إنني أدرك أن هذه الصورة لن يتمكن من رؤيتها إلا من كانت له تجربة ما تساعده على إدراك هذه الحقيقة التي حاولت نقلها وتصويرها قدر المستطاع، والتي تمثل جزءا من هذه المشاعر النابضة التي عاشها بالفعل كثير ممن استشعروا معنى الخوف من عقوق الأبوين ـ والعياذ بالله تعالى ـ فتيقظت كل مشاعرهم وحواسهم لهفة وأملا في رضاهما، إذا ما كانت لأي من الأبوين إليهم حاجة.

إن الخوف والرجاء لهما دليلان على صدق التعلق بالله تعالى والإقرار له بالعبودية سبحانه، ولعل كثيرا من التصرفات التي يراها

الناس ويعتبرونها من مظاهر الصلاح، لا تحمل في حقيقتها جزءا من الصدق والإخلاص الذي يحمله حديث النفس ولا يطلع عليه إلا الله تعالى، والذي يدل على التقوى والصلاح أكثر بكثير مما يدركه الناس.

إنها النفس اللوامة التي أقسم بها الله ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1]، ومن هذا الوجه هي التي تلوم صاحبها على ترك الطاعة، أو تلومه على الوقوع في الذنب، ومثل هذه النفس تحمل الخير لصاحبها وتعينه عليه، وعندما تقوى يقظتها لا يملك صاحبها أثناء حواره معها، أو سماعه لها أن ينشغل بأمر آخر، مهما كان كبيرا في أعين الناس، لأنه يصبح كمن سلبت الحياة من سائر جوارحه، إلا فيما يتعلق بما تلومه عليه نفسه وتؤنبه، ومن هنا استحق أن تنفرج الصخرة، والله أعلى وأعلم.

[1] سورة القيامة: ٢.

القصة الثانية

هذه القصة تتحدث عن هذا الذي سعى من أجل المتعة الحرام، وذلك لأنه أحب امرأة متزوجة وأراد أن يصل إليها بطريق حرمه الله تعالى، وهذا معناه أنه لم يكن صالحا، وقد افترضنا سابقا أن الثلاثة كانوا صالحين.

☜ والجواب عن هذا: أن ساعة وجودهم في الغار هي مناط الحكم، بمعنى أن العبرة بوقت تواجدهم في الغار وليس حالهم قبل ذلك، وكم من شقي تاب الله عليه وأصبح بعد التوبة من الأتقياء، وباب التوبة ليس دونه ودون المذنبين حاجز أو حجاب.

ونظرا لأن صاحبنا هو محور القصة فلابد أن ننظر في حاله من كل جوانبه، حتى يمكننا فهم قصته على وجه صحيح، ولعل أدق ما يلفت النظر بالنسبة له أنه يمكن أن يكون من هؤلاء الذين يحملون قلوبا نقية، ولكنها واقعة في متاهة، فخلطت عملا صالحا وآخر سيئا، أو أنه كان في تيه وغفلة دون أن يتنبه للهاوية التي ينجرف إليها، وهو

مع كل هذا صاحب قلب نابض بالخوف والخشية، ولكنه في حاجة إلى البداية، في حاجة إلى من يأخذ بيده إلى طريق الهدى والصلاح.

والذي يقودنا إلى هذا الاعتقاد أن انفراج الصخرة كثمرة لعمله يؤكد أن الله قد اطلع على قلبه وهو العليم الخبير، وعلم منه التهيؤ للخير والصلاح، فساقه إلى هذا الموقف ليفيق من غفلته ويرجع عن غيه، ففي صحيح البخاري أن رَسُولُ اللهِ ﷺ قال وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: "فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى لاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا"[1].

والذي نوقن منه تماما أن هذا الذي يعمل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له في النهاية بالنار والعياذ بالله، لم يكن عمله ينبع من إخلاص وصدق مع الله تعالى، بل لعله كان نفاقا، أو لمأرب ما لا طاعة لله فيه، كما قد يكون كهؤلاء الذين يسيرون في طريق، أو ضمن صحبة ما قدر له أن

[1] صحيح البخاري رقم ٧٤٥٤.

يكون معهم، أو موافقة لعموم الناس، فهو سير بلا هوية، ولعله يصل إلى أعلى درجات الجد، ولكنه مع هذا صاحب قلب خالٍ، ويأبى الله تعالى إلا أن يُعبد على بينة، ومثل هذه القلوب لا خير حقيقي فيها، ولولا أن الله تعالى يجري عليهم بعض الفتن التي تكشف عن حقيقة قلوبهم، وعن زيف جدهم واجتهادهم الظاهري، لماتوا على ما هم عليه ولفتن الناس بهم، ولكنها الفتن التي يبصر الناس من خلالها إلى خفايا المستور، وما ربك بظلام للعبيد.

☜أما هؤلاء الذين يحملون قلوبا طيبة ولكن تحتاج إلى ما يزيح عنها الغشاوة فهم على الرغم من كل ما يرتكبونه من معاصٍ لا يستحلونها في قرارة أنفسهم وإن كانوا لم يتوقفوا عنها بعد، وهكذا يتغير حالهم بسبب من الأسباب بما يوافق حقيقة قلوبهم، فهؤلاء هم الذين يعملون بعمل أهل النار ثم يغير الله حالهم فيعملون بعمل أهل الجنة فيدخلونها، وهذه كلها أحوال لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يملك ميزان القسط فيها إلا هو سبحانه، وقد يعجز البشر عن إدراك كوامن الحكمة في مثل هذه المقادير، لماذا يختبر البعض حتى تظهر

خفايا نفوسهم، بينما غيرهم كثير قل أن توقظهم فتنة أو يغيرهم اختبار.

وكل هذا ما لا طاقة للبشر بعلمه، ولهذا اختص الله عز وجل به، فلا يجب مطلقا التوقف أمام هذه الأقدار، بل لابد من اليقين أن الله عز وجل عدل لا يحابي أحدا ولا يظلم أحدا، وأن تحقيق مفهوم العبودية على الوجه الذي يرضي الخالق سبحانه لا يتم إلا بالتسليم واليقين بذلك، وصدق تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

[1] سورة الكهف: الآيتان ١٠٣، ١٠٤.

توبة صاحب القصة:

إن عظم الذنب وهول المعصية ليس معناه أن باب التوبة مغلق في وجوه هؤلاء العصاة، بل إن من رحمة الله بعباده أنه يقبل التوبة مهما كان قدر المعصية، وعظم الذنب، ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وقال جل في علاه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2].

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ أَوْ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[3] والمعنى أن باب التوبة مفتوح ما لم تحضر سكرة الموت.

والتوبة تطهر صاحبها من أثر المعصية، ففي حديث الغامدية: "ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ

---

[1] سورة الزمر: ٥٣.

[2] سورة النساء: ٤٨، ١١٦.

[3] سنن الترمذي رقم ٣٥٣٧، وقال الشيخ الألباني: حسن.

وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟»[1]

☜فالتوبة تمحو ما قبلها من الخطايا، التي تتعلق بحق الله تعالى، وهذا يفهم من قوله ﷺ: "وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟».

وليس معنى التوبة أن يتم التراجع عن الذنب في موقف من المواقف، ولا يزال القلب معلقا بالذنب، بل إن التوبة لا تكون حقيقية إلا إذا صدق القلب في العزم على ترك الذنب والمعصية.

ونحن بحاجة إلى التأكيد على حقيقة التوبة بالنسبة لصاحب القصة لارتباط ذلك بزحزحة الصخرة، وإلا لو كان الأمر مجرد حدث عابر لكان معناه التناقض بين أدلة الشرع، وهو غير جائز ولا يصح بحال من الأحوال.

---

[1] صحيح مسلم، رقم ٢٤.

ووجه التناقض: أن الدعاء ما لم يكن نابعا من قلب صادق مع الله فلا قيمة له، ففي الحديث كما في سنن الترمذي: "ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ"[1].

إن استجابة دعاء العاصي وهو مازال على المعصية، لم يتب منها، يزين المعصية ويغري بها العصاة أكثر وأكثر، فهل يليق هذا بالخالق سبحانه، أن يزين المعصية للعصاة، ثم ينهاهم عنها، ويعاقبهم عليها، إن هذا لا يليق بين حكماء الناس، فما بالنا برب الناس جميعا، جل وعلا سبحانه.

☜ومن هنا يقودنا انفراج الصخرة إلى أن صاحب القصة قد تاب توبة صادقة، والله أعلى وأعلم.

☜وفي هذه القصة ما يدل على أنه تاب بالفعل، ففي رواية الإمام الطبراني: "وَقَالَ الْآخَرُ: قَدْ عَمِلْتُ حَسَنَةً مَرَّةً، كَانَتْ لِي فَضْلٌ فَأَصَابَتِ النَّاسَ شِدَّةٌ فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ تَطْلُبُ مِنِّي مَعْرُوفًا، فَقُلْتُ: وَاللهِ

[1] سنن الترمذي رقم ٣٤٧٩، وقال الشيخ الألباني:صحيح.

مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ، فَأَبَتْ عَلَيَّ، فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ، فَذَكَّرَتْنِي بِاللهِ وَأَبَيْتُ عَلَيْهَا، وَقُلْتُ: لَا وَاللهِ مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ، فَأَبَتْ عَلَيَّ، فَذَهَبَتْ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِزَوْجِهَا فَقَالَ لَهَا أَعْطِيهِ نَفْسَكِ وَاغْنِي عِيَالَكِ، فَرَجَعَتْ إِلَيَّ فَنَشَدَتْنِي بِاللهِ فَأَبَيْتُ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَسْلَمَتْ إِلَيَّ نَفْسَهَا فَلَمَّا كَشَفْتُهَا أُرْعِدَتْ مِنْ تَحْتِي، فَقُلْتُ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ فَقَالَتْ: أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَقُلْتُ: لَهَا خِفْتِيهِ فِي الشِّدَّةِ وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرَّخَاءِ، فَتَرَكْتُهَا وَأَعْطَيْتُهَا الْحَقَّ عَلَيَّ بِمَا كَشَفْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ لِوَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا"[1].

ففي هذه الرواية تصريح يدل على التوبة، وهو معنى قوله لَهَا (خِفْتِيهِ فِي الشِّدَّةِ وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرَّخَاءِ)، والذي قاله على وجه الانكار لما يفعله، كما وفي رواية أخرى: "اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ رَحْمَتِكَ وَمَخَافَةَ عَذَابِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ"[2]، وهذا تأكيد

[1] المعجم الكبير للطبراني رقم ٢٠٨.

[2] الدعاء للطبراني رقم ١٩٧.

آخر لمعنى التوبة الصادق، وإلا فما معنى ابتغاء الرحمة وخوف العذاب إلا هذا.

فإن قيل هل الكف عن المعصية يعتبر من عمل الصالحات؟

☜ للجواب: بعد أن بينا أن صاحب القصة قد تاب، يستوقفنا أن العمل الذي دعا الله به هو من قبيل الكف عن المعصية وليس عملا من أعمال الخيرات، فأين هو العمل الصالح الذي استحق به استجابة الدعاء؟

ولعل مما يقرب لنا المعنى المراد حديث الذي قتل مائة نفس، وأراد أن يتوب: "فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ "[1].

[1] صحيح مسلم رقم ٤٦.

فإذا كان هذا قد وقع في المعصية كاملة، بقتل النفس المائة، ولم يعمل صالحا قط، وقبل الله توبته، وكان من نصيب ملائكة الرحمة، أفلا يكون التائب الذي لم يرتكب المعصية أولى بقبول التوبة، وأن يكون أيضا من نصيب ملائكة الرحمة فيقبل دعاؤه.

ومع هذا يمكن أن نلتقط صورة العمل الصالح الوجودي بالفعل، وليس مجرد الكف، وهذا العمل الوجودي له وجهان:

أعلاهما الخوف من الله تعالى والخشية من عقابه، وهو ليس مجرد كف وترك معصية، بل إن الخوف من الله تعالى، والخشية من عقابه لا ينبع إلا من إيمان حقيقي، والذي يمثل المطلوب الأسمى للإنسان في الحياة، ومقام الخوف من الله ثمرته الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1]، كما يقول جل في علاه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

---

[1] سورة الرحمن: ٤٦.

[2] سورة النازعات: ٤٠، ٤١.

☜ وأما الوجه الثاني: والذي يدل على أنه فعل عملا صالحا، زيادة عن مجرد الكف، أنه نجح في منع نفسه بعد أن كانت قد انحدرت إلى الهاوية، وكم هو صعب وشاق وعسير أن يتوقف الإنسان عن التردي والسقوط إلى الهاوية إذا ما ترك نفسه ينزلق من عل، ولا يمكنه التوقف عن السقوط إلا بقوة هائلة، وهذه هي قوة الصدق مع الله بعد الخوف الحقيقي.

والذي يبين أنه بالفعل قام بعمل لا يقدر عليه إلا أصحاب النفوس العزيزة أنه قد أَمنَ تماما كل تبعات الوقوع في الفاحشة، ونفهم هذا من قوله: (فَذَهَبَتْ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِزَوْجِهَا فَقَالَ لَهَا أَعْطِيهِ نَفْسَكِ وَاغْنِي عِيَالَكِ) وكأنه يشير إلى شدة الحاجة التي نزلت بهذه العائلة حتى ألجأت عائلها إلى الوقوع في هذا التصريح المشين، مع أن حال الزوجة يدل على أنها تخشى الله وتأنف من الوقوع في الحرام وتأباه، ولم نجد من هذه الزوجة الصالحة إنكارا على الزوج بسبب قوله هذا، وهذا يجعلنا نطمئن إلى أن هذا الزوج لم يقل القول لكونه

فاسدا عاصيا لله، ولكنها الحاجة التي ترفع الإثم عمن وقع في الحرام بسبب الضرورة.

ومما يساعد على تبرئة الزوج من الفسق والفساد أن الحديث الشريف سكت عنه ـ على الرغم مما قال ـ والسكوت هنا يشير إلى أن الزوج لم يقل هذا إلا بسبب عجزه وقلة حيلته، ويقرب هذا المعنى إذا استحضرنا الضرورة الملحة، التي قد تُلجيء الإنسان إلى التلفظ بكلمة الكفر ـ وقلبه مطمئن بالإيمان ـ لأدركنا أن الضرورة جعلت هذه الأسرة لا حول لها ولا قوة، بل هي في حالة استباحة الحرام للضرورة، كما أنها أيضا يمكن أن تشير إلى أن الزوج كان مريضا زمنًا"[1] أقعده المرض عن الكسب، وكانت الزوجة هي التي تقوم على شئون العائلة بالنفقة والرعاية، فلا خوف من ردة فعل الزوج مثلا

[1] لسان العرب (٤/ ٤٨٣) والضُّرّ أَيضًا هُوَ حَالُ الضَّرِيرِ، وَهُوَ الزَّمِنُ الذي أصابه المرض المزمن. الزَّمِن: هو المرض الملازم للشخص زمنًا طويلًا، كالضعف بكبر السن، ونحو ذلك، قال الفيومي في "المصباح المنير" (٢٥٦): "زَمِنَ الشخص زَمَنًا وزَمَانَةً فهو زَمِنٌ، من باب تعِب، وهو مرض يدوم زمانًا طويلًا".

أو انتقامه، أو ما شابه ذلك، وهذا كله يصور كيف أصبح الأمر سهلا ميسورا بالنسبة لصاحب القصة، ومع هذا كله امتنع عن الفاحشة ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتاب عما بدر منه توبة نصوحا، فهي لم تكن توبة دفع إليها مانع من الوقوع في الفاحشة، بل على العكس من ذلك هي توبة في وقت تيسرت فيه كل سبل المعصية ولكنه امتنع ابتغاء مرضاة الله.

☜يقول الإمام الغزالي: (شهوة الفرج أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على الفعل فمن ترك الزنا خوفًا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب سيما عند صدق الشهوة نال درجة الصديقين)[1].

إن امتناعه عن الوقوع في الفاحشة ليس مجرد كف، لأن الكف المجرد هو الامتناع قبل الدخول في دائرة السقوط، وقد يتحقق الكف دون أي مجاهدة أو مقاومة، وذلك إذا نجح الإنسان في البعد عن مواضع الفاحشة والرذيلة، أما بعد أن ينزلق بالفعل فلم يصبح مجرد

[1] إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر القسطلاني (٥/ ٤٢٩).

كف بل لابد له من الفعل، بل والإرادة الصلبة القوية للحيلولة دون ارتكاب الإثم الكبير.

إنه موطن من أشد المواطن وأقواها شدة وصعوبة، ولأجل هذا حذر الشرع من الاقتراب من هذه الدائرة الخطرة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1]، نهانا الخالق سبحانه عن مجرد الاقتراب منه، فإن الذي يدخل هذه الدائرة المحرمة قل أن ينجو منها، بل غالبا ما يسقط إلى الهاوية، ويقع في الفاحشة المقيتة.

ومن هنا يمكن أن نتصور هذه القوة الهائلة التي استجمع بها نفسه وامتنع عن الوقوع في الفاحشة، إن هذا لهو من أجل الأعمال الصالحة، التي تعلي من شأن صاحبها، والتي استحق أن يجاب به الدعاء، وتنفرج له الصخرة بالقدر الذي أذن به الله تعالى، والذي لا يسمح بخروجهم، حتى تكتمل الحكاية وتستخرج العبر، التي حملتها كل قصة وتغاير كل منها الأخرى.

[1] سورة الإسراء: ٣٢.

☜ وفي ختام هذه القصة لا نجزم أننا نجحنا في الإحاطة بكل أسرارها، ولكن عسى أن نكون قد نجحنا في بيان، المنهج الذي يجب أن نتعامل به مع هذا القصص العظيم، والله ولي التوفيق.

القصة الثالثة

هذه هي القصة الأخيرة التي تناولها الحديث الشريف، ونحن الآن بانتظار انفراجة الصخرة الانفراجة الأخيرة التي تسمح لهم بالخروج.

ولابد أن يكون العمل الذي يتقدم به صاحب هذه القصة من الأعمال الصالحة التي يرضى عنها المولى تبارك وتعالى، ليتحقق الاستجابة للدعاء.

ولما كانت أعمال الصالحات تتفاوت فيما بينها، فلابد أن يكون هذا العمل من الأعمال التي ترقى إلى مراتب الخير العليا، وليس مجرد عمل مما يألفه الناس، ويقدمون عليه دون ما مشقة تذكر، ولأن المكافأة الكبرى لابد أن تكون ثمرة نجاح عظيم.

ويؤكد هذا المعنى ما أورده الإمام ابن حجر في شرح فتح الباري بقوله: "وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ جَمِيعًا فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَفَا الْأَثَرُ وَوَقَعَ الْحَجَرُ وَلَا يَعْلَمُ بِمَكَانِكُمْ إِلَّا اللهُ ادْعُوا اللهَ بِأَوْثَقِ أَعْمَالِكُمْ وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ عِنْدَ الْبَزَّارِ تَفَكَّرُوا فِي أَحْسَنِ أَعْمَالِكُمْ

فَادْعُوا اللهَ بِهَا لَعَلَّ اللهَ يُفَرِّجْ عَنْكُمْ وَفِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا شَيْئًا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَدْعُوَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِخَيْرِ عَمَلٍ عَمِلَهُ قَطُّ"، فالعمل المطلوب هو أحسن الأعمال وأوثقها، بل هو خير عمل عملوه على الإطلاق.

وقد وجدنا في القصتين السابقتين كيف كان العمل الصالح محتاجا إلى نفوس قوية باليقين في الله تعالى، إلى الدرجة التي استحقا بها أن تكون هذه الاستجابة الحسية، والتي ترقى إلى مصاف المعجزات أو الكرامات، والمتمثلة في انفراج الصخرة الضخمة العظيمة التي استعصت عليهم بغير سبب بشري.

ولهذا فإن الظن الغالب أن تكون هذه القصة الثالثة على نفس الدرجة من صدق الرجاء وقوة اليقين في الخالق سبحانه، وأنها من خير الأعمال الصالحة، وأحسنها أيضا.

☜وتصوير القصة كما أوردها الإمام ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري: (قَوْلُهُ عَلَى فَرَقٍ بِفَتْحِ الْفَاءِ وَالرَّاءِ بَعْدَهَا قَافٌ وَقَدْ تُسَكَّنُ الرَّاءُ وَهُوَ مِكْيَالٌ يَسَعُ ثَلَاثَةَ آصُعٍ، فِي رِوَايَةِ سَالِمٍ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ

فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى: اسْتَأْجَرْتُ قَوْمًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ فَلَمَّا فَرَغُوا أَعْطَيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ وَاللهِ لَقَدْ عَمِلْتُ عَمَلَ اثْنَيْنِ وَاللهِ لَا آخُذُ إِلَّا دِرْهَمًا فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ فَبَذَرْتُ مِنْ ذَلِكَ النِّصْفِ دِرْهَمٍ إِلَخْ، وَيُجْمَعُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ الْفَرَقَ الْمَذْكُورَ كَانَتْ قِيمَتُهُ نِصْفَ دِرْهَمٍ إِذْ ذَاكَ)[1].

(قَوْلُهُ فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ فِي رِوَايَةِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ فَأَعْطَيْتُهُ فَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فَعَمِلَ لِي نِصْفَ النَّهَارِ فَأَعْطَيْتُهُ أَجْرًا فَسَخِطَهُ وَلَمْ يَأْخُذْهُ)

(وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ بَيَانُ السَّبَبِ فِي تَرْكِ الرَّجُلِ أُجْرَتَهُ وَلَفْظُهُ كَانَ لِي أُجَرَاءُ يَعْمَلُونَ فَجَاءَنِي عُمَّالٌ فَاسْتَأْجَرْتُ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِأَجْرٍ مَعْلُومٍ فَجَاءَ رَجُلٌ ذَاتَ يَوْمٍ نِصْفَ النَّهَارِ فَاسْتَأْجَرْتُهُ بِشَرْطِ أَصْحَابِهِ فَعَمِلَ فِي نِصْفِ نَهَارِهِ كَمَا عَمِلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فِي نَهَارِهِ كُلِّهِ فَرَأَيْتُ عَلَيَّ فِي الذِّمَامِ أَنْ لَا أَنْقُصَهُ مِمَّا اسْتَأْجَرْتُ بِهِ أَصْحَابَهُ لِمَا

[1] فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٠٧).

جَهِدَ فِي عَمَلِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ تُعْطِي هَذَا مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَنِي فَقُلْتُ يَا عَبْدَ اللهِ لَمْ أَبْخَسْكَ شَيْئًا مِنْ شَرْطِكَ وَإِنَّمَا هُوَ مَالِي أَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شِئْتُ قَالَ فَغَضِبَ وَذَهَبَ وَتَرَكَ أَجْرَهُ).

"وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ فَأَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ وَأَنَا غَضْبَانُ فَزَجَرْتُهُ فَانْطَلَقَ وَتَرَكَ أَجْرَهُ فَلَا يُنَافِي ذَلِكَ وَطَرِيقُ الْجَمْعِ أَنَّ الْأَجِيرَ لَمَّا حَسَدَ الَّذِي عَمِلَ نِصْفَ النَّهَارِ وَعَاتَبَ الْمُسْتَأْجِرَ غَضِبَ مِنْهُ وَقَالَ لَهُ لَمْ أَبْخَسْكَ شَيْئًا إِلَخْ وَزَبجرَهُ فَغَضِبَ الْأَجِيرُ وَذَهَبَ وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ وَتَرَكَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَجْرَهُ وَزَعَمَ أَنَّ أَجْرَهُ أَكْثَرُ مِنْ أُجُورِ أَصْحَابِهِ)[1]. أ.ه.

☜وهكذا تتضح الصورة وأن صاحب القصة أعطى أحد الأجراء الذين عملوا نصف الوقت نفس الأجر الذي أعطاه للذين عملوا الوقت كله، وهذا بسبب اجتهاد هذا الأجير، فغضب أحد الأجراء الذين عملوا الوقت كله ورفض أخذ أجره.

---

[1] المرجع السابق.

وهو أمر مذموم من هذا الأجير الذي ترك أجره، لأنه إنما حسد غيره على فضل ساقه الله له، مع أنه لم ينقص من حقه شيئا، وهكذا هي نفوس البشر قل من يسلم منها من مثل هذه النقائص، إلا من عصم الله تعالى.

والآن أصبح أجر هذا الأجير دينا في ذمة صاحب المال، لا يطالب بأكثر منه مهما طال الوقت الذي مر عليه أو قصر.

☜وأما ما بناه الفقهاء من أحكام على هذا التصرف، والتي تدور حول: ما قيل إنه تصرف في مال الأجير بغير إذنه، أو إظهار أمانة صاحب المال، أو الاهتمام بأصناف المال من زرع وماشية، وغير ذلك، فيغلب على ظني أن مرجعه إلى أنهم تعاملوا مع القصة على أنها خبر، ولم يشغلهم إلا استخراج الأحكام الشرعية، ولم ألحظ أنهم اهتموا بالتصوير القصصي كما هو سياق الحديث، ولولا الإطالة لنقلت أقوالهم في هذا الأمر.

ولكن مع هذا لابد أن نبين منحى الفقهاء في تناول القصة كما أورده الإمام ابن حجر بقوله: "هَذِهِ التَّرْجَمَةُ مَعْقُودَةٌ لِبَيْعِ الْفُضُولِيِّ وَقَدْ مَالَ

الْبُخَارِيُّ فِيهَا إِلَى الْجَوَازِ وَأَوْرَدَ فِيهِ حَدِيث بن عُمَرَ فِي قِصَّةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ انْحَطَّتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ فِي الْغَارِ، وَمَوْضِعُ التَّرْجَمَةِ مِنْهُ قَوْلُ أَحَدِهِمْ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرْقٍ مِنْ ذُرَةٍ فَأَعْطَيْتُهُ فَأَبَى فَعَمَدْتُ إِلَى الْفَرْقِ فَزَرَعْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا فَإِنَّ فِيهِ تَصَرُّفَ الرَّجُلِ فِي مَالِ الْأَجِيرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا ثَمَّرَهُ لَهُ وَنَمَّاهُ وَأَعْطَاهُ أَخَذَهُ وَرَضِيَ وَطَرِيقُ الِاسْتِدْلَالِ بِهِ يَنْبَنِي عَلَى أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا وَالْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ)[1]...الخ.

وقوله: (تَصَرُّفَ الرَّجُلِ فِي مَالِ الْأَجِيرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ)، فيه بُعد وغرابة، لأن الذي يثبت للأجير هو أجره في الذمة، ولم يتعين هذا الأجر بعينه، بل ليس له إلا ثلاثة آصع من أرز أو ذرة، بحسب اختلاف الروايات، وهو قدر ضئيل، كما ورد في بعض الروايات يعدل نصف درهم.

والبعد والغرابة يرجع إلى أن هذا التناول يفرِّغ العمل من حقيقته من حيث أنه من أحسن أعمال الرجل، وأوثقها، وأكثرها خيرا، وهكذا

[1] فتح الباري لابن حجر (٤/ ٤٠٩).

ينتزع الوصف الخبري الصفة الجمالية من القصة، ويجعل أهم ملمح فيها غائبا.

وسوف نرى أن هذا الذي فعله صاحب المال هو أعلى درجات العمل الصالح بالنسبة له، والذي يظهر من سياق القصة أنه كان من الرجال الصالحين، بدليل أنه أعطي الأجير الذي عمل نصف اليوم الأجر كاملا، لما رأى اجتهاده، وكان هذا تفضلا منه، وليس مفروضا عليه.

ثم ننتقل إلى أعلى أعمال هذا الرجل من الناحية الخيرية، والتي وردت في قصة الأجير، لنرى حقيقة هذا التصرف وكيف أنه بالفعل يستحق هذا الوصف.

إن هذا الرجل ـ صاحب القصة ـ كما يتضح من تصرفاته كان خيّرا ذا نفس طيبة، ولهذا عندما ترك الأجير أجره، كان تصرفه مع هذا الأجر دليلا على خيريته، وتعالوا بنا نقرأ ما دار في ذهن هذا الرجل بهذا الشأن، لنتعرف على وجه الخيرية فيه.

إن معظم الناس لن يتكلفوا أي اهتمام لمثل هذا الأجير الذي تصرف هذا التصرف المذموم، بل غاية ما يفعلونه أن يحتفظوا له بأجره كما هو، أو في أحسن أحواله يحتفظون له بالقيمة إن كان حفظها أفضل وأنفع للرجل.

ولقد رأينا أن الأجير قد غاب سنوات، ولم يهتم العلماء والفقهاء بكيفية حفظ الأرز أو الذرة كل هذه الفترة، والتي من المؤكد أنها لو تركت كما هي لأتلفتها الحشرات، ولو قلنا إن الرجل سيحميها بأي طريق فمن المؤكد أن قيمتها الذاتية ستختلف بطول المدة، حتى ولو لم تصبها الحشرات.

والآن ونحن نستحضر هذه الصورة والتي يغلب عليها احتمال تلف الأرز أو الذرة المستحق لهذا الأجير، أو تردي قيمته الذاتية، كلما طال عليه الزمن، ثم ننظر في غالب أحوال الناس، فإننا سنعتبر أن صاحب المال لو استهلك حق الأجير لنفسه، على أن يعطيه بدلا منه نفس المقدار إذا جاء ليطلبه، ، سيكون قد فعل أفضل الأشياء،

وسيكون هذا هو أفضل طريق للحفاظ على أجر الأجير من الأرز أو الذرة.

وأما ما انشغل به الفقهاء، من حكم التصرف في ملك الغير بغير إذنه، وما إلى ذلك فسوف يؤدي إلى تلف المال، وإلى تعاظم الخصومة، وهو ما لا يرضاه الشرع.

وإذا كنا قد أوضحنا أن الاحتفاظ بالقيمة يحسب لصاحب المال ويكون من ضمن الخيرات، فهيا بنا ننظر إلى هذا العمل العظيم، والذي يفوق كل ما يمكن تخيله من أعمال الخير، والذي من أجله استحق صاحب القصة أن تكمل الصخرة انفراجها، ويتم تحريرهم من هذا المصير المميت.

☜ وهيا بنا ننظر إلى هذا الحديث النفسي، الذي لا يمكن أن يدور إلا في نفس طيبة، نفس لوامة، تدفع صاحبها إلى طريق الجنة من أوسع أبوابها، وكيف لا وقد تنزلت عليه رحمات الله تعالى في هذا الموقف الذي اقترب فيه الموت منهم حتى كان قاب قوسين أو أدنى.

إن الله أرحم من أن يمن على عبده بالنجاح في هذا الاختبار الصعب ثم يختم له بعاقبة السوء، معاذ الله أن يفعل ذلك، وهو القائل تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[1].

☜ فهنيئا لكل هؤلاء الذين وعدهم الله، ووعده الحق، وعدهم بما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، حيث يقول جل في علاه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[2].

☜إن هذا الرجل كأنما أراد أن يطمئن نفسه بأنه ليس من زمرة الظالمين، وكأنه لام نفسه وعاتبها بسبب أنه زجر هذا الأجير، أو غضب في وجهه، وحال الأجير ـ في أغلب الأحوال ـ أقرب إلى الضعف والانكسار، ولهذا لام صاحب المال نفسه، أن تسبب في إهانة هذا الأجير، مهما كان السبب، فإن صاحب المال يكون دائما

[1] سورة الرعد: ٢٩.

[2] سورة يونس: ٦٤.

في موضع القوة والتمكن، وكان يكفيه أن يفعل الصواب دون أن يعنف الرجل، وليحمل هذا الأجير وزر حسده لغيره أمام الله.

ولكنه ـ أي صاحب المال ـ استسلم للطبيعة البشرية، وغضب وأراد أن يوبخ الأجير على تدخله فيما لا يعنيه، وما كان له أن يفعل هذا، فإن الذي يملك أن يحاسب الخلق هو الله تعالى، وبخاصة فيما يجري من أحاديث النفس، ولعل تصرف الأجير لم يكن مقصودا به شيئا مما يوجب الذم، فلعله لم يقصد الحسد أو الطمع، ولعل نيته كانت حسنة، على وجه من الوجوه التي لا يعلمها صاحب المال.

وأما إذا كان الأجير قد أخطأ فليس هذا تسويغا لصاحب المال أن يخطئ هو الآخر، وبخاصة أنه ليس مضطرا إلى هذا الخطأ ـ أي زجر الأجير.

☜ ولعل توجيه الرسول ﷺ في الحديث "أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ"[1]، يكون سببه أن لا يُظلم الأجير بسبب ضعفه واحتياجه، كما هو الغالب.

[1] سنن ابن ماجه، رقم ٢٤٤٣، وقال الشيخ الألباني صحيح.

ومع أن سياق القصة يدور فيمن كان قبلنا إلا أن الشرائع الربانية لابد وأنها تتفق في معاني الأخلاق الأساسية، والتي منها الرفق وعدم الظلم.

☜وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم كيف كان يفكر صاحب المال، وهو الرجل الخير ذو النفس الطيبة، إنه في الأعم الأغلب قد لام نفسه وعاتبها بعد أن ذهب الأجير دون أن يأخذ حقه، ولعله قد غلب عليه الخوف من الله تعالى أن يكون قد ظلم هذا الأجير.

وهنا، وغالبا لهذا السبب، لعله أراد أن يكفر عن هذا الخطأ بأن يعمل عملا كبيرا، يبتغي به التكفير عن ذنبه، ولولا هذا لما كان هناك أي حافز أو مبرر لأن يفعل ما فعل.

☜ونحن عند هذا المشهد من حديث النفس الذي تشير إليه القصة، نلمس بسهولة ويسر مدى رقة هذا القلب، وتمكن الإيمان من هذه النفس اللوامة، التي تراجع صاحبها وتحاسبه أولا بأول.

إن هذه النية الصالحة التي تمكنت من نفس صاحب القصة لتستحق أن تكون من كرائم العمل الصالح ففي الحديث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا

يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

وها هي مرحلة الهم يحل محلها العمل، هذا العمل الذي يستوجب من المال أضعاف أضعاف قيمة الأجر، ولكنها الكفارة، أو التجارة مع الله، فليبدأ هذا الرجل الصالح الطريق الصعب طمعا في رضوان الله تعالى، فإنه سيبذل من ماله وجهده واهتمامه لينمي أجر الأجير عسى أن لا يأتي إلا وقد تم نماؤه، أي بعد الحصاد.

وليس كل ما يتمناه المرء يدركه حتى ولو كان عملا صالحا، ولكن الله العليم بخلقه يستجيب لمن يشاء كما يشاء سبحانه، وإنه لمن أعلى درجات التوفيق أن يتمنى الرجل عملا صالحا فيوفقه الله له، إنه ليس جهدا خالصا للبشر، بل كل عمل الإنسان يفتقر إلى توفيق الله

[1] صحيح البخاري رقم ٦٤٩١، صحيح مسلم رقم ٢٠٧.

تعالى، حتى ما كان منه من أعمال الطاعات الخالصة، ولا ينعم بالتوفيق إلا من خلصت نيته لله تعالى وصدق قلبه في الإخلاص لله عز وجل.

☜وها هو موسم الزرع ينتهي ويتم الحصاد وقد أصبح الخير وفيرا، ومطمع لكل نفس، ولكن لم يأت الأجير بعد، ومن ذا الذي يظن أنه سوف يأتي بعد ذلك، ولكنها التجارة مع الله وليست مع البشر، وياله من خير وتوفيق أن يسدد الخالق سبحانه بعض عباده لعمل خير يعجز عنه كثير من البشر.

إنه لن يكتفي بما فعل بل زاد طمعه ورجاؤه في عفو الله تعالى ورضاه، ولهذا سيستمر في العطاء والتضحية، وها هو يفكر مليا في تنمية المال الذي ينميه للأجير احتسابا للأجر والثواب عند الله تعالى، وها هو يعدل عن الزرع ليتجه إلى الثروة الحيوانية من الغنم والماشية، وها هو يخص هذا المال ببعض العبيد ليقوموا على رعايته، ومازال الأجير لم يظهر له أثر، ولكن لن يغير هذا من الأمر شيئا، وليأت هذا

الأجير الآن أو بعد ذلك أو لا يأتي مطلقا، فالمال مال الله تعالى، وسيبقى على هذه الصفة.

وعند هذا المشهد لابد أن نتوقف ـ مرة أخرى ـ وقفة نستقريء فيها ماذا كان يدور في نفس هذا الرجل صاحب القصة، بعد هذه المرحلة التي تحققت من تنمية أجر هذا الأجير.

لقد استمر في هذا العمل الذي بدأه بنية الكفارة وطلب العفو من الله تعالى، ثم مرت الشهور، بل السنون، ولا يوجد أحد من البشر يحاسبه على ما جادت به نفسه، ومن الممكن أن تستمر هذه النية الطيبة على صلاحها وتقواها، ما لم يطرأ ما يختبر حقيقة قوتها وتمكنها من النفس، وهكذا هو حال كثير من البشر.

☜ما أسهل أن يتمادى الإنسان في ظن الخير بنفسه، إذا ما كان العطاء يسيرا ولا ينتقص من ملكه شيئا ذا قيمة، ولكن سرعان ما تنمحي هذه الصفة إذا توجَّب عليه لسبب أو لآخر أن يبذل من المال ما يؤدي إلى أن ينقص ما يملكه نقصا مؤثرا.

☜وهكذا ما أسهل أن يستمر هذا الرجل الطيب في تنمية المال لأنه مازال في يده ولا ينازعه فيه أحد، ولا يمكن لأحد من البشر أن يطلع على حقيقة نيته، ما لم يحدث ما يظهر للناس الحقيقة، ولو لم يظهر الأجير لما علم الناس صدق نية هذا الرجل.

☜وها نحن الآن وبعد هذه السنوات يظهر الأجير وليس له أي مطمع في شيء إلا هذه الآصع الثلاثة من الأرز، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة الحاجة التي ألجأته إلى العودة بعد هذه السنين من أجل هذا الشيء الهين قليل القيمة، وهذا أيضا يصور لنا أن مثل هذا الأجير في هذه الحال يكون من الضعف والانكسار بمكان كبير، بمعنى أنه لا حول له ولا قوة، فلا رهبة تخشى من ورائه، ولا مطمع يرجى منه، فيحابى من أجله.

☜وهيا بنا الآن ننظر إلى صدق النية التي كان صاحب المال يُسرّها في نفسه:

هل حقا سينجح في التخلي عن كل هذا المال، وهو يملك أن يحتفظ به لنفسه، إنه ليس مالا قليلا بل هو يقترب من أن يكون ثروة، أو هو كذلك بالفعل.

ولو قيل أنه يمتلك مالا كثيرا، ولهذا لن يطمع في هذا المال، فسوف يكون الجواب أن هذا ليس مانعا من الطمع في المزيد وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[1].

إن المال فتنة ولم ينجُ من هذه الفتنة إلا من أعانه الله تعالى وسدده، وكم أهلك المال كثيرا من العباد، لتمكنه من نفوسهم وغلبته عليها، وكيف لا وحب المال شهوة وليس مجرد حب، والويل كل الويل لمن تملكته هذه الشهوة وغلبت عليه، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ

[1] صحيح البخاري رقم ٦٤٣٧، صحيح مسلم رقم ١١٦.

﴿الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

☜وها هي لحظة الاختبار قد حانت، وبخاصة أن الأجير قد جاء وهو يتوجس خيفة أن لا يعطيه صاحب العمل هذه الحفنات من الأرز، حيث جاءه يقول: "اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي"، فقد طال الزمان وما أسهل أن ينسى الناس، وما أسهل أن تضيع الحقوق إلا من عصم الله، فليذكره بالله، عسى أن يعطيه أجره.

وكأن الأجير دون أن يدري يفتح بابا لصاحب المال حتى يتراجع عما نواه، ويغريه المال فلا يتخلى عنه، ويكفيه أن يعطيه ما طلبه بنفسه.

ولكن الأمر لم يكن أبدا على هذا النحو، فقد حزم أمره وصدق مع ربه، وأخلص في نيته ودعواه، وكل هذا طمعا في مرضاة الله وليس انتظارا لمكافأة من البشر.

☜إنه الصدق، إنه اليقين إنه النجاح في الاختبار، فهنيئا لمن وفقه الله وسدد خطاه، إنه لم يشعر أبدا بملكيته لهذا المال مهما نما وتضاعف

[1] سورة آل عمران: ١٤.

قدره، بل تأهلت نفسه واطمأنت دوما أنه مال الله، فهو عنده مجرد أمانة لا غير، فلن يكون التخلي عنه سببا في أي معاناة بل على العكس لعلها تكون السعادة والرضا أن تحقق له مراده ومبتغاه، بل إنه النجاح الذي كان يرجوه، فليذهب المال إلى هذا الأجير، فإنه قبل أن تمتد إليه يد الأجير قد وقع في يد خالقه ومولاه وعسى أن يتقبله منه ويرضاه له، "اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا".

يا سبحان الله أبكل هذه السهولة واليسر؟

ولكن ولم لا أليس المطلع على ما في قلبه هو الله تعالى، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1]، إنه لم يتراجع، ولم يتردد لأنه بحق في معية الله تعالى يوفقه ويسدد خطاه.

☜وانظر إلى رد فعل الأجير لتدرك أن الأمر لم يكن في نطاق ما يتصوره البشر، حيث قال: "اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ"، وكيف لا

[1] سورة غافر: ١٩.

يظن أنه يستهزيء به، وهو الضعيف المسكين الذي ألجأته الحاجة إلى أن يأتي بعد هذه السنين يطلب حقا هزيلا.

ومَن مِن أصحاب المال هذا الذي يأبه لمثل هذا الأجير"، ولكنها النفوس المؤمنة التي نشأت على معنى العبودية الحق، فنالت رضى خالقها سبحانه، "فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ".

نعم انفرجت الصخرة، وكيف لا تنفرج وهي مأمورة ومجندة ليتعلم الناس ويتعظوا من هؤلاء الثلاثة، وليزداد اليقين مهما عرض للناس من صعاب، فإن كل شيء يجري بقدر.

فهنيئا لمن عاش هذا القصص الكريم بقلبه ومشاعره، وليس بسمعه وأذنيه.

الفهرس

المقدمة ٧

حديث الثلاثة الذين في الغار..... ١٣

هذه القصة ١٤

قصة هؤلاء الثلاثة..... ١٧

كيف التقى هؤلاء الثلاثة وما الذي جمع بينهم؟..... ٢٠

بين الصدق واليقين..... ٢١

الصحبة الطيبة..... ٢٨

المعجزة أو الكرامة..... ٣٢

القصة الأولى: راعي الغنم ٣٤

القصة الثانية: ابنة العم ٤٧

القصة الثالثة: الأجير ٦٢

والله ولي التوفيق.

تم بحمد الله